الفصل الثالث

التعقيب والمهلة فى مشتبه النظم

obeikan.com

obeikan.com

• نظرة النحاة إلى اختلاف العاطفين

من روائع مواقع الفاء وثم، وأدلها على إعجاز القرآن فى وضع الحرف موضعه الملائم له، ما تعاورتا فيه مواقعهما من مشتبه النظم الحكيم، ولدقة هذه المواضع وخفاء أسرارها اندفع الباحثون فى معانى الحروف إلى القول بصحة تبادل الحرفين مواضعهما، معللين ذلك بأن المعطوف الممتد زمنه إذا نُظر إلى ابتدائه قصر الزمن بينه وبين ما عطف عليه، فاستحق حرف التعقيب، وإذا نظر إلى انتهائه طال الزمن فاستوجب حرف المهلة. ورائد هذا القول هو الرضى، الذى تلقف تعليله هذا كثير من المفسرين، ورأوا فيه حلا لما التبس عليهم أمره فيما تبادل الحرفان فيه مكانيهما. قال الرضى: (ثم اعلم أن فائدة الفاء للترتيب بلا مهلة لا ينافيها كون الثانى يحصل بتمامه فى زمن طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبًا لما تقدم، كقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾ [الحج: ٦٣]، فإن اخضرار الأرض يبتدئ بعد نزول المطر لكن يتم فى مدة ومهلة، فجيء بالفاء نظرًا إلى أنه لا فضل بين نزول المطر وابتداء الاخضرار، ولو قال ثم تصبح، نظرا إلى تمام الاخضرار جاز، وكذا قوله: ﴿**جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً**﴾ [المؤمنون: ١٣، ١٤] نظرا إلى تمام صيرورتها علقة، ثم قال: ﴿**فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا**﴾ [المؤمنون: ١٤] نظرا إلى ابتداء كل طور، ثم قال: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾ إما نظرا إلى تمام الطور الأخير، وإما استبعادا لمرتبة هذا الطور، الذى فيه كمال الإنسانية من الأطوار المتقدمة)[1].

وبرغم إعجاب كثير من المفسرين بهذا التعليل للمغايرة بين الحرفين فى المواقع المتشابهة، فإننى أرى أن مثله لا يقنع الباحث عن أسرار المغايرة، وما يشيعه كل حرف فى سياقه من دلالاته الخاصة، فضلا عن أنه لا يجيب عن أهم سؤال،

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧.

وهو لماذا أوثر كل حـرف فى موضعـه؟ أو بعبارة أوضح: لماذا نـظر إلى الابتداء فجيء بحـرف التعقيب تارة، ونظر إلـى التمام فجيء بحـرف المهلة تارة أخرى؟ إن الإجابة على هذا السؤال هى التى تنكشف بها أسرار الحروف، وبغيرها تصبح مجرد تعليلات تبحث عن تصحيح وقوع الحرف، وتعرض عن بيان وجه البلاغة فيه.

فليست فروق النظم مما تكشف عنها الأحكام العامة، وإنما تُتلمس أسرارها فى دواعى الأحوال، ومقـاصد الكلام التى يوسوس بها السـياق، وهى وحدها التى تقطع بأن هذا الحرف أو ذاك وقع موقعه الذى لا يمكن استبدال غيره به، وتُرجح اعتبارا على اعتبار آخر. وإليك الأمثلة:

• الزمن فى أطوار النبات

فى مقام التهوين من شأن الدنيا، واستقصار نعيمها إلى جانب ما أعده الله من النعيم المقـيم فى الآخرة، أوثرت الفاء فى تصـوير سرعة زوالها، لأنهـا وحدها الـتى تنهـض بهـذا الدور، فتضـمر الزمن فى أحشائها. وتطوى عـجلاته بسرعة لا تكاد العين تلمح دوراتها، حتى لا يفـيق المشاهد إلا على أجراس نهاية الدنيا وزوال أثرها. قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**﴾ [يونس: ٢٤].

تأمل قوله ﴿**أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ**﴾، كيف طوت فيه الفاء ما بين إنزال الماء وتمام الإنبات، وهى مرحلة طويلة ممتدة، فلم تشهد الماء يختلط بالأرض ليحيى مـواتها، وإنما رأينا النبات حيا نامـيا يختلط بالماء لدى نزوله من السماء، وكأنما النبات نما وأزهر واستوى على سوقه قبل نزول الماء، حتى ينحصر زمن رؤيته فى التـماعة خاطفة، فـلا يكاد يظهر حتى يختـفى من الوجود، وهو الذى جسده الشرط وجوابه «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فـجعلناها حصيدا» فليس بين اخضرار

الأرض وتزينها بالنبات، وبين إتيان أمر الله المعبر به عن الإهلاك زمن يذكر، لما أن الجواب يتعقب الشرط، وهكذا جاءت الفاء فى قوله ﴿**فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً**﴾ لتنهى هذا المشهد بمثل ما بدأته فى لمحة خاطفة. ويصبح كل شىء أثرا بعد عين. ذلك مثل الدنيا وزهرتها، فما أحمق من يستبدلها بنعيم لا ينقطع، ويتشبث بلحظة زائلة ليلقى نفسه فى عذاب مقيم.

وهكذا وبإيقاع أسرع جاء قوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾ [الكهف: ٤٥- ٤٦].

فقد اختلطت رؤية النبات بنزول الماء، ولم تكد العين تقع عليه حيا مزهراً حتى ألفته هشيما يذهب أدراج الرياح، وكما لم تمهل العين للاستمتاع بالنظر فيما أنبتت الأرض، لم يمهل الفكر ليربط بين الماء وأثره فى حياة النبات، فعاجل الزمن الفكر بمثل ما عاجل البصر. إنها ظاهرة كونية واحدة أوجد الله بها وأعدم. رياح تمطر فتنبت، ورياح تعصف فتهلك، أرأيت دنيا تقوم وتنفض فى مثل ما تبدأ الريح وتنتهى؟! إنها أشبه ببيوت من الرمال يلهو بها الطفل، فهى تتهدم حالما تبنى.

يقول المرحوم سيد قطب: (وقد استخدم النسق اللفظى فى تقصير عرض المشهد، كما استخدمت وسيلة العرض الفنية لهذا الغرض، فهذا التعقيب الذى تمثله هذه الفاء فى تتابع المراحل، يتفق مع طريقة العرض السريعة. ثم هذا الماء النازل لا تختلط به الأرض فتنبت، بل يختلط به نبات الأرض مباشرة، وهذه حقيقة، ولكنها حقيقة تعرض فى الوضع الخاص الذى يحقق السرعة المطلوبة)[1].

(١) التصوير الفنى ١٠٨.

ولعلك تسأل لم كان الإيقاع هنا أسرع من المثل السابق، ومشهد تصويره أقصر؟ والجواب أنه جاء عقب حوار بين كافر يتباهى بجنته، ويقطع بأنها لن تبيد أبدا، ومؤمن يحذره من عقاب الله تعالى، لينتهى هذا الحوار بقوله تعالى على لسان المؤمن: ﴿**فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**﴾ [الكهف: ٤٠- ٤٢].

فكما لم يمهل صاحب الجنة حتى يقلب بصره فى جنته قبل أن يقلب كفيه حسرة على ضياعها، كذلك جاء ضرب المثل للحياة الدنيا فى سرعة إيقاع سابقه، وكلاهما مثل لزهرة الدنيا وسرعة زوال نعيمها.

قلت: إن الدنيا أشبه ببيوت من الرمال يبنيها طفل على شاطئ ليلهو بها، فتنهدم حالما تبنى، لكن الطفل لا ييأس من معاودة البناء كلما عاودها الهدم، وكأنه يرى متعته فيما يُعجب الناظر إليه من صبره وطول أمله.

أترانى قد بعدت من قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد: ٢٠].

إنه تصوير للدنيا من داخل نفس الغارق فى ملذاتها، المخدَّر بزخرفها وزينتها، المتشبث بالأمل فى بقائها. إنه نفس الطفل الذى يلهو بما يصنعه من بيوت الرمال، لا يمل من إعادة البناء، ولا يفقد الأمل فى أن تثمر محاولاته عن بيت يدوم له البقاء. إن الفرق بين الأمثلة السابقة التى ضربها الله للدنيا وبين هذا المثل، كالفرق بين إحساس الطفل فى استمتاعه بما يبنى ويعيد من بناء دون أن يتطرق إليه اليأس، وبين ما يراه الراقب له المتعجب لصبره وطول أمله، فهذا

الأخير يرى الدنيا على حقيقتها، بناء يتهدم بنفس السرعة التى يبنى بها، وذلك الطفل يراها رخيّة طويلة يلهو بها ما وسعه الوقت للهو ويتشبث بالبقاء وطول الأمل.

لذلك جاء حرف التراخى ليعكس صورة الدنيا فى أعماق نفس اللاهى بها، فيطيل زمن إعجاب الكفار بنباتهم، رمزا إلى استغراقهم فى ملذات الدنيا، وغفلتهم عما وراءها، ويدخل مرة ثانية بين اصفرار النبات وصيرورته حطاما، ليرمز إلى طول الأمل والتشبث ببقائه، حتى وهم يرون نهايته فى ذبوله واضمحلاله. وكأنهم أرادوا الاستمتاع بالدنيا إلى آخر لحظة فيها وفى أعمارهم. لذلك قابل الله طول الغفلة بمضاعفة العذاب «وفى الآخرة عذاب شديد».

ففى الأمثلة السابقة تصوير لحقيقة الدنيا كما يراها خالقها، وفى هذا المثل تصوير لها من خلال أعين الغارقين فيها، المستمتعين بلهوها ولعبها، وكان حرفا التعقيب والتراخى أداتى ضبط المسافات فى عدسة التصوير، تقرِّب وتبعِّد، وتكبِّر وتصغِّر طبقا لما يراه المصور.

وقد كان صاحب التصوير الفنى دقيقا حين ربط بين أداة العطف وما يراد لها أن تؤديه لتحقيق أغراض الكلام ومقاصده، فقال: (فالصورة المعروضة لقصر الحياة متحدة تقريبا مع الصورة الأولى، ولعل هذا يخيل للبعض أن هناك تكرارا كاملا، ولكن الواقع أن هناك اختلافا دقيقا. إنه أطال عرض شريط الحياة الدنيا -كما يراه الكفار- فهى لعب ولهو، وزينة وتفاخر بينكم، وتكاثر فى الأموال والأولاد، ليقول: إن هذا الذى تعجبون به كله، وهذا الذى تستطيلون أمده، إنما هو فى حقيقته قصير زائل)[1].

لقد قلت من قبل: إن هناك فارقا بين تصوير حقيقة الزمن، وتصوير الإحساس به، وضربت لذلك مثلا بقوله تعالى فى قصة العزير ﴿**فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٩]

(١) التصوير الفنى ١٠٩.

فعبر الله فيما حكاه عن حقيقة الزمن، وجاء بثم الدالة على طول زمن موته، وعبر العزير عن إحساسه به فرآه يوما أو بعض يوم، فصدق فى التعبير عما أحس به، وإن كان مخالفا لحقيقة الزمن، وهذا هو الفرق بين حقيقة الدنيا كما يريد الله أن يراها أولو الألباب، وبين إحساس الغارق فيها، المستطيل لأمدها حتى لم يعد يرى ما وراءها.

ثم انظر كيف يؤْثر الله حرف المهلة فى مجال الامتنان بنعمة نزول الماء وأثره فى حياة الإنسان والنبات، فيطيل المشهد ويبطئ فى إيقاعه، ليتيح الفرصة للتدبر وإدراك عظيم قدرة الله تعالى، فيما نشاهد من عجائب صنعه، كما فى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٢١]

فهذا مجال التذكر وإنعام النظر، وذلك يناسبه مط الزمن، وعرض المشهد فى بطء، ليدرك المشاهد تفاصيله، ويقع على ما خفى ودق منه، لذلك لم يعقب نزول الماء خروج النبات، وإنما نبه إلى أمر هو من أعظم دلائل القدرة، وإن غاب عن النظر، لكثرة دورانه على الحس، وهو قوله ﴿**فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ**﴾ فأراك مرحلة طواها فى الأمثلة السابقة، وهى حركة الماء يجرى أنهارا فوق سطح الأرض، أو يتسرب إلى باطنها، فيجرى تحت طباقها ليمثل مخزونا يتفجر آبارا وعيونا، وقد جاء حرف المهلة فى قوله ﴿**ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا**﴾ ليطيل زمن التأمل فى الماء وهو يأخذ طريقه إلى باطن الأرض، يمهد لخروج النبتة الصغيرة، ويشق لها حجب الأرض، ويزيل عن سطحها أثقال الركام، وكل ما يعيق طريقها إلى النور والهواء، وكأن الماء لا يروى ظمأها فحسب، وإنما يفتح لها نوافذ الخروج إلى الحياة، وهذا هو سر التعبير بالإخراج، ولما كان الزرع باختلاف ألوانه يستدعى طول التأمل والنظر، فيما أبدع الله من هذا التنوع فى الألوان والطعوم والروائح فى نبات تحتضنه تربة واحدة، ويسقى بماء واحد، دخلت ثم فيما عطف

عليه لتطيل زمن المشاهدة ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ حتى هذه المرحلة من الشيخوخة لا يستعجل القرآن فى عرضها، لأنها طور من أطوار النبات، فلا يتعجل بنهايته قبل بلوغ الغاية التى أرادها الله ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ وفى تأملها ضرب من الاستبصار.

إنه مقام الدعوة إلى تدبر أسرار الخلق، وتأمل بدائع الصنعة، والوقوف على جلائل النعم، وما سخر الله تعالى للإنسان من مقومات الحياة، (فبطء عرضها، ولُبث صورها)، وتملى مشاهدها، أجدر بالموقف ولهذا تستمتع بكل هذا الوقت الطويل)[1] وليس سوى حرف المهلة أداة ربط أخرى قادرة على الوفاء بهذا الغرض.

• الزمن فى أطوار الإنسان

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤] وهو الذى علل الرضى اختلاف العاطف فيه باختلاف النظر إلى بداية الطور أو تمامه، فإنه بحاجة إلى تحقيق، لأن اختلاف الاعتبارات فى النظر -على فرض التسليم به- تابع لاختلاف الدواعى والأغراض، وفيه يكمن السر فى إيثار حرف على آخر. لأن مدة كل طور من النطفة والعلقة والمضغة -كما حددها الرسول عليه السلام- هى أربعون يوما، فإما أن تستقصر جميعها فيؤتى بحرف التعقيب، أو تستطال جميعها فيجتلب لها حرف المهلة. أما أن ينظر إلى بداية الطور تارة وإلى تمامه تارة أخرى فذلك لابد له من موجب، وهو ما لم يكشف عنه الرضى، لذلك رأى الشهاب أن مثل هذا الجواب ناقص، وأن تمامه فيما صرح به البيضاوى بقوله: «واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات» فقال الشهاب تعليقا عليه: (يعنى عطف بعضها بثم الدالة على التراخى، وبعضها بالفاء التعقيبية، مع أن

(١) التصوير الفنى ١١٢.

الوارد فى الحديث من أن مدة كل استحالة أربعون يوما يقتضى أن يعطف الجميع بثم إن نظر لتمام المدة، أو لأولها، أو بالفاء إن نظر لآخرها، كما قال النحاة: إن إفادة الفاء الترتيب بلا مهلة لا ينافى كون الثانى يحصل بتمامه فى زمان طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبا لآخر ما قبله، وهذا يصحح عطف بعضها على بعض بثم، وبعضها بالفاء. لكنه لا يتم به الجواب -كما توهم- إذ لابد من المرجح للتخصيص، وإليه أشار المصنف بقوله: «لتفاوت الاستحالات» يعنى أن بعضها مستبعد حصوله مما قبله، وهو المعطوف بثم، فجُعل الاستبعاد عقلا أو رتبة بمنزلة التراخى والبعد الحسى، لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جدا، وكذا جعل تلك النطفة البيضاء دما أحمر، بخلاف جعل الدم لحما مشابها له فى اللون والصورة، وكذا تثبيتها وتصليبها حتى تصير عظما، لأنه قد يحصل ذلك بالمكث فيما يشاهد، وكذا مد لحم المضغة عليه ليستره)[1].

فالتراخى بين النطفة والعلقة تجوز بالاستبعاد، للدلالة على تفاوت ما بين الخلقين، أما خلق المضغة من العلقة وتحويل المضغة عظاما فليس بينها من التفاوت والبعد ما بين النطفة والعلقة، لذلك دخلت الفاء بينها.

وهذا كلام وجيه لو أنه أطَّرد فى الذكر الحكيم. لكن يعكر عليه ما جاء فى سورة الحج من قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ**﴾ [الحج: ٥] فقد دخلت «ثم» بين المضغة والعلقة. وليس بينهما من التفاوت والبعد ما يستدعى حرف المباعدة كما قال.

ولصاحب المنار كلام أكثر دقة فى الكشف عن سر اختلاف العواطف فى الموضع الأول. قال (فالسلالة المستخرجة من الطين هى المكون الأول الذى يعبرون عنه بلسان العلم الآن بالبروتوبلازما، ومنها تكون أصلنا فى ذلك الطور،

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٣.

لأنه تعالى يقول: خلقه من تلك السلالة، ثم انتقل إلى طور التولد بواسطة النطفة فى القرار المكين، وهو الرحم، ثم انتقل إلى طور تحول النطفة إلى علقة، والعلقة إلى مضغة، والمضغة إلى هيكل من العظام يكسى لحما، وقد عد هذا طورا واحدا، ثم أنشأه خلقا آخر، وهو آخر أطواره) [1].

فالعلقة والمضغة والعظام طور واحد، ولذلك دخلت الفاء بين مراحله للدلالة على اتصالها، ودخلت ثم بين الأطوار الأخرى للدلالة على تباينها، وشدة التفاوت بينها. يدل لذلك ما جاء فى سورة غافر فى بيان أطوار خلق الإنسان، حيث اكتفى بالعلقة عن المضغة والعظام، وجعلها طورا مستقلا، ولو كانت كل من المضغة والعظام طورا قائما بذاته، لما كانت صالحة للاختزال. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً**﴾ [غافر: ٦٧]. فالتقت هذه الآية مع ما جاء فى سورة المؤمنون من بيان الأطوار الأربعة: السلالة، وهى التراب، والتولد بواسطة النطفة، ومراحل تكون الجنين فى بطن الأم، وإخراجه طفلا، المعبر عنه هناك بالخلق الآخر، فلم يختزل من الأطوار الرئيسة شيئا، واختزل من طور تكوين الجنين بعض مراحله.

يبقى بعد ذلك بيان السر فى عطف المضغة على العلقة فى سورة الحج بثم، مع أنها مرحلة متصلة بها، داخلة فى طورها.

وأراه -والله أعلم- نابعا من اختلاف الخطاب، فالخطاب فى الموضع الأول للمؤمنين وهم الذين استهلت بهم السورة: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١-٢] وتتابعت أوصافهم التى أورثوا بها الفردوس الأعلى، إلى أن جاءت قصة الخلق هذه ليكشف الله تعالى فيها للمؤمنين عن أسرار خلق الإنسان، وأطوار تكونه بدءا من أصل سلالته، وانتقالا إلى طور التولد، ومرورا بتفصيل مراحل نموه فى بطن أمه، وانتهاء بخلقه بشرا سويا.

(١) تفسير المنار ٣/ ٢٦٣.

فالمقام مـقام إعلام، سيـقت فيه للمخـاطب أطوار الخلق بحقائقهـا وتفاصيل مراحلها، ليعلم بهـا ما كان جاهلا، وينكشف له ما كان خـافيا، والمخاطب هنا باحث عن المعرفة، مستقبل لها استقبال الموقن بصدق الخبر.

أما آية الحج فالمخاطب فيها منكر للبعث وسيقت له قصة الخلق لبيان قدرة الله تعالى على الإحيـاء بعد الإماتة، فاستدعى مـقام الإنكار تعديد الأطوار، وإبراز مراحل الطور الواحد فى صورة أطوار متعددة، باعد بينها حرف التراخى، ليظهر عظيـم قدرة الله فى أنـه يخـلق الشـىء من أبعـد ما يكون عنه مـادة وجنسا، وما يستحيل فى العقل والعادة أن يكون منه، كما يستحيل أن يكون التراب ماء، أو يتحـول الماء دما، أو يصير الدم الجـامد لحما تنبض فـيه الحياة. حـتى يخجل المعاند حين يرى فى كل طور من أطوار خلقـه ما هو أعظم من البعث، ويرعوى عن مكابرته، ويسلم بأن الذى بدأ هذا الخلق هو الذى يعـيده، وهو أهون عليه، ولله المثل الأعلى فى السـموات والأرض. ألا ترى كـيف بدأت آية الحج بهـذا الخطاب ﴿**يَا أَيُّهَـا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَـعْثِ فَـإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ**..﴾ [الحج: ٥] إن هذا الخلق فى كل طور من أطواره يـشهـد بقدرة الله تعـالى على البعث، بل إن أقل المراحل بعدا، وأقربها إلى الاتصال، وهى الانتقال من العلقة إلى المضغة لهى مستبعدة فى حكم العقل، فلا تستحيل العلقة مضغة إلا على يد قادر عظيم، لا يستـبعد من مثله أن يعيد الخلق كمـا بدأه، فكان حرف التراخى هو الأجدر بمقام التعديد والاستبعاد، وبه صارت المضغة طورا آخر مباينا للعلقة، فى قوله (ثم من مـضغة) فى حـين دخلت الفاء فى خطاب المؤمنين المصـدقين، لتصل بين مراحل الطور الواحد، وذيلت قصـة الخلق فى خطابهم بقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) لتلهج ألسنتهم بما أيقنت به قلوبهم، وشفعت قصة الخلق فى خطاب المنكرين بقـوله: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ لاَّ رَيْبَ فِيـهَـا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُـورِ**﴾ [الحج: ٦-٧]. فكان اختلاف الخطاب سبيلا إلى اختلاف العواطف.

●● طيّ زمن التذكير ومَطْله

ومما اختلفت فيه العواطف من مشتبه النظم الكريم، قوله فى سورة الكهف: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ [الكهف: ٥٧]، فعطف الإعراض على التذكير بالفاء، فى حين عطف بثم فى قوله تعالى من سورة السجدة: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٢].

والحقيقة أن الإعراض أعقب التذكير فى الحالتين، فالموضع موضع الفاء، وقد اقترض حرف المهلة موضع الفاء، مرتديا ثوب المجاز بالاستبعاد، إيماء إلى سفه المعرضين، ومخالفتهم لما يقضى به العقل والمنطق من لين القلوب بالتذكير، واستجابتها لدعوة الحق. هكذا علل أهل البيان من المفسرين دخول ثم فى هذه الآية، لكنهم سكتوا عن بيان السر فى ترك هذه المبالغة فى التشديد والإنكار المفادة بحرف المهلة فى سورة الكهف، حيث جىء بالفاء الدالة على المسارعة، وهو ما هدى الله تعالى الخطيب الإسكافى إلى بيانه، من خلال الربط بين دلالات الحرف ومقتضيات السياق. يقول الخطيب: «والجواب أن يقال: إن الفاء وثم مشتركان فى أن ما بعدهما فى اللفظ متأخر عما قبلهما فى المعنى، ومختلفان فى أن فى الفاء قرب ما بعدها مما قبلها، وفى ثم تراخيا عنه وبعدا، فكان استعمال الفاء فى سورة الكهف أولى، واستعمال «ثم» هناك أحق وأحرى. وذلك أن ما فى سورة الكهف فى ذكر قوم يُدْعون إلى الإيمان، ولم تختم أعمالهم بالكفر، لقوله تعالى: ﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا** ﴾ [الكهف: ٥٦]. فكأنهم عقبوا التذكير بآيات الله الإعراض. وقبولُهم للدين، وإقبالهم عليه مرجوان منهم، وليس كذلك «ثم أعرض عنها» لأن الآية فى وصف الكفار بعد موافاتهم القيامة، لقوله: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا** ﴾ [الكهف: ٢١- ٢٢] أى ذُكّر مدة

عـمـره بآيات ربه، وتطاول الأمـر بزجره ووعـظه، ثم ختـم ذلك بترك القـبـول وبالإعراض، فكان هذا قولا يقال فيهم عن الانتقام منهم» [1].

ولا يضير الإسكافـى أن أجرى «ثم» على حقيقـتها بخلاف الزمـخشرى ومن لف لفَّه، ممن جعـلوها مجازا بالاستبـعاد، لأنهما يلتـقيان فى أنها أكـثر تشديدا وزجـرا من الفاء، والإعراض بها أقبح وأفظع، إمـا لغرابته وبعده فى ترتبه على ما يوجب الإقبال، كما هو مدلول المجاز، وإما لما فيه من الإصرار والتمادى على الباطل بعد طول التذكير، كما هو مفهوم الحقيقة.

• تعجيل النظر وتأجيله

ومن عجيب المغايرة فى مشتبه النظم، تلك الآيات التى دعا الله فيها إلى السير فى الأرض للنظر فى آثار الهالكين، والاتعاظ بمصائرها، فـعطف النظر على السير بالفاء فى أحد عشر موضعا، وعطف بحرف التـراخى مرة واحدة، فمما عطف بالفاء قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـاقِبَـةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ [ثلاثة مواضع: يوسـف ١٠٩، وغافر ٨٢، ومـحمـد: ١٠]. وقوله: ﴿**أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ**﴾ فى ثلاثة مواضع أخرى: الروم: ٩، وفاطر: ٤٤، وغافر: ٢١] وجاء بصيغة الأمر ﴿**فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَـانَ عَـاقِبَـةُ الْمُكَذّبِينَ**﴾ [آل عمـران: ١٣٧، والنحل: ٣٦]. ﴿**قُلْ سِيـرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [النمل: ٦٩] ﴿**قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ**﴾ [الروم: ٤٢].

والمرة الوحيـدة التى عطف فيها بحـرف المهلة قوله تعالى من سـورة الأنعام: ﴿**قُلْ سِـيـرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَـيْفَ كَـانَ عَـاقِـبَـةُ الْمُكَذّبِينَ**﴾ [الأنعام: ١١]. فتكاثرت الآراء فى بيان سر هذه المخالفـة. قال الزمخشرى: «فإن قلت: أى فرق بين قـوله «فانظروا» وبين قوله «ثم انـظروا»؟ قلت: جعل النظر مسببا عن السير فى قـوله «فانظروا» فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. وأما قوله «سـيروا فى الأرض ثم انظروا» فمعناه إباحـة السير فى

(١) درة التنزيل ٢٨٣.

الأرض للتجارة وغيرها من المنـافع، وإيجاب النظر فى آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح»[1].

فجعل التـعقيب دليلا على إخلاص السيـر لأجل النظر، والتراخى دليلا على الانشغال بأعمال أخرى مباحة كالتجارة وغيرها قبل النظر، وهو كلام يحتاج إلى تعليل اختيار «ثم» لهذا الموضع وحده، لتـدل على ما دلت عليه من إباحة السير للتجارة وغيرها. وهو الذى دفع أبا حيان إلى اعتراضه بقوله: « ودعوى أن الفاء تكون سببيـة لا دليل عليها، وإنما معناها التعقيب فـقط، وأما مثل: ضربت زيدا فبكى، وزنى مـاعز فرجم، فالتـسبيب فـهم من مضمون الجـملة، لا لأن الفاء موضـوعة له، وإنما يفيـد تعقيب الضـرب بالبكاء، وتعقيب الـزنا بالرجم فقط، وعلى تسليم أن الفاء تفيد التسبيب، فلم كان السير هنا سير إباحة وفى غيره سير واجب؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضع، وبين تلك المواضع»[2].

وبالرغم من أننا لا نوافق أبا حـيان على سلب مـعنى السبـبية مـن الفاء وهو الذى أثبته جمهور النحاة، فإننا نـرى اعتراضه على اختصاص «ثم» بهذا الموضع دون تفسير سبب اختصاصها به وجيها. ولذلك لم يسترح صاحب الإنصاف إلى تأويل الزمخـشرى، ذاهبا إلى التجـوز فى حرف المهلة بالتراخى الرتبى، فـقال: (وأظهر من هذا التـأويل أن يجعل الأمر بالسيـر فى المكانين واحدا، ليكون ذلك سببًا فى النظر، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية، وحيث دخلت «ثم» فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السـير، وإن السير وسيلة إليه لاغـير، وشتان بين المقصود والوسيلة»[3].

لكن هذا أيضا لا يدفع اعتراض أبى حيـان، إذ يبقى السؤال قائما، وهو لماذا خصت آية الأنعام بجعل النظر هو المقصود والسير وسيلة إليه؟

والأَولى فى نظرى حـمل ثم على حـقيـقـتهـا، والبـحث فى دواعى السيـاق ومقتضياته عن السر فى تراخى النظر فى هذه الآية، وهو ما وقع عليه صاحب درة

(١) الكشاف ٢/ ٧.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٨١ (٣) الإنصاف ٢/ ٧.

التنزيل، وكشف عنه فى عبارة دقيقة واضحة: «فقوله فى سورة الأنعام: «قل سيروا فى الأرض ثم انظروا» لم يجعل النظر فيه واقعا عقيب السير، متعلقا وجوده بوجوده، لأنه بعث على سير بعد سير، لما تقدم من الآية التى تدل على أنه تعالى حثهم على استقراء البلاد، ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثرا بعد أثر، فى ديار، بعد ديار، قد عم أهلها بدمار، لقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾ [الأنعام: ٦] ثم ذكر فى قوله «كم أهلكنا من قبلهم من قرن» يعنى قرونا كثيرة قبلهم أهلكناها، ثم قال «وأنشأنا بعدهم قرنا آخرين» فدعا إلى العلم بذلك بالسير فى البلاد ومشاهدة هذه الآثار، وفى ذلك ذهاب أزمنة كثيرة، ومدد طويلة تمنع النظر من ملاصقة السير، كما قال فى المواضع الأخرى التى دخلتها الفاء، لما قصد من معنى التعقيب واتصال النظر بالسير، إذ ليس فى شىء من الأماكن التى استعملت فيها الفاء ما فى هذا المكان من البعث على استقراء الديار»[(١)].

فليس التراخى فى النظر دليل الانشغال بغيره، وإنما استدعاه الإكثار من السير وتفقد آثار الأمم الكثيرة البائدة فى العصور المتباعدة، واستيفاء الإحصاء والوقوف على المقدمات قبل الوصول إلى النتائج، لأن النظر المراد هنا نظر الفكر والتأمل، فلما كانت الدعوة إلى السير متسعة فى هذا الموضع زمانا ومكانا بقدر اتساع الهالكين وآثارهم تراخت الدعوة إلى النظر، حتى لا تكون نظرة عجلى حمقاء تحمل الكل على الجزء.

- **أثر الزمن فى مضاعفة العذاب**

ومن دقيق ما اشتبه نظمه وغوير فيه بين العواطف. قوله تعالى فى سورة الصافات: ﴿**أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا**

(١) درة التنزيل ١١٢

﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٢- ٦٧]. فعطف الشرب على الأكل بحرف المهلة. وفى سورة الواقعة جاء قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١- ٥٦]. فعطف الشرب بحرف التعقيب، مع أن المأكول منه فى الموضعين واحد، وهو شجرة الزقوم، وفيهما معا يأكلون حتى تتملئ بطونهم، فما سر هذا الاختلاف؟

لقد ذكر الزمخشرى وجهين للتراخى فى سورة الصافات، ذهب فى أحدهما إلى الحقيقة، وفى الثانى إلى المجاز، والسر فى الأول زيادة تعذيبهم بالعطش، وفى الثانى التدرج فى التعذيب، والارتقاء إلى ما هو أكره وأبشع. يقول جار الله فى بيان الوجهين: (أحدهما أنهم يملأون البطون من شجر الزقوم، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم، فلا يسقون إلا بعد ملىّ، تعذيبا بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحر، وهو الشراب المشوب بالحميم. والثانى أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بثم للدلالة على تراخى حال الشراب عن حال الطعام، ومباينة صفته فى الزيادة عليه) [(١)].

إلا أن القول بالتراخى الزمنى يأباه ما جاء فى الموضع الآخر معطوفا بالفاء، وهو ما كان مثار الاعتراض عليه. قال الألوسى: (واعترض بأنه يأباه عطف الشرب بالفاء فى قوله تعالى: ﴿فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم﴾ فلابد من عدم توسط زمان. وأجيب بأنه يجوز أن يكون الشراب الممزوج بالحميم متأخرا بزمان عن ملئهم البطون، دون شرب الحميم وحده. وكذا يجوز أن يكون الحال مختلفا، فتارة يتأخر الشرب مطلقا زمانا، وأخرى لا يتأخر كذلك. وقال بعضهم: ملؤهم البطون أمر ممتد، فباعتبار ابتدائه يعطف بثم، وباعتبار انتهائه بالفاء) [(٢)]

(١) الكشاف ٣/ ٣٤٢.
(٢) روح المعانى ٢٣/ ٩٦.

ولا يخفى عليك أن هذه التجويزات تعليلات جدليَّة، وتصورات لادليل عليها، كما أن القول الأخير بامتداد زمن ملء البطون، وأن المغايرة راجعة إلى اختلافات النظر بين الابتداء والانتهاء لا يفسر وجه اختلاف الاعتبارات. فهل يصح أن يعكس الأمر وينظر إلى الابتداء فى سورة الواقعة، فيقال: ثم شاربون عليه من الحميم، بوضع حرف المهلة موضع حرف التعقيب، أو يقال فى سورة الصافات: فإن لهم عليها لشوبا، بوضع الفاء موضع ثم؟

إذا كانت الإجابة نعم، فإنه يخرج عن دائرة النظم المعجز، الذى لا يمكن أن يستبدل فيه حرف بآخر دون أن يتغير المعنى ويختلف الغرض. وإذا أجيب بلا، رجعنا إلى ما بدأنا به وهو لماذا؟ وما سر كلٍّ فى موضعه؟

وأراه -والله أعلم- أن الحديث فى سورة الصافات كان منصبا على شجرة الزقوم، والتهويل من شأنها. وتفظيع الأكل منها، بدليل أن الحديث بدأ بالتساؤل عنها، وبيان أوصافها مستغرقا خمس آيات، وعطف الشرب على الأكل منها فى آية واحدة، واتسمت أوصافها بما يبعث الرعب والفزع من شكلها ومأكلها، وحفلت بشتى وسائل التوكيد والإيضاح، حتى بدت وكأنها أفظع ما فى الجحيم من ألوان العذاب. ألا ترى إلى قولة: ﴿**إنا جعلناها**﴾ وما فيه من ضمائر المعظم ذاته، إلى ما فيه من التوكيد، مما يصبغ المجعول بسطوة المتكبر الجبار، وقوله ﴿**إنها شجرة**﴾ بما يبثه ضمير القصة مع التوكيد والتنكير من غرابة وغموض مخيفين، ثم هذا التشبيه الغريب المدهش «طلعها كأنه رءوس الشياطين» بما يوحيه من أنه لم تقع عين فى دنيا المرئيات على شبه لها فظاعة وقبحا، حتى انتزع لها مما استقر فى أوهام الناس ما هو أقبح الأشياء صورة وأشدها هولا؟!.

فلما كان الغرض هو تفظيع هذه الشجرة والتهويل من شأن الأكل بها، كانت إطالة زمن الأكل منها هى الأنسب بهذا الغرض، وكأنهم كلما آلمهم الأكل منها، واشتد بهم العطش ليطفئوا من نارها فى بطونهم زيدوا من الأكل منها تشديدا فى العذاب عليهم، بخلاف السياق فى آية الواقعة، حيث كان الغرض أن يجمع

للضالين بين ألوان من العذاب، متمثلة فى شر المأكل والمشرب، وبولغ هناك فى الشرب بدليل تكراره، فدخلت الفاء للترقى من عذاب شديد فيما يأكلون إلى عذاب أشد فيما يشربون.

●● المجازاة بين المبادرة والإمهال

ومن مواضع المغايرة كذلك ما عطف فيه الإنباء بالعمل على الرجوع إلى الله بالفاء فى جميع ما جاء بالذكر الحكيم، عدا موضعا واحدا عطف فيه بحرف التراخى. فمما عطف بالفاء قوله تعالى خطابا لليهود: ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[الجمعة: ٨]، وقوله خطابا للمشركين: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الزمر: ٧]

أما العطف بثم فقد جاء مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ٦٠]

وقد تطلبت تفسيرا للمخالفة فى سورة الأنعام التى انفردت بحرف التراخى، فلم أعثر على ضالتى فى كل ما قرأت، ولم يقرنه أحد بموضع من مواضع الفاء ليستجلى سر المغايرة. وقد هدانى الله تعالى بعد طول تأمل ومراجعة إلى ما أرجو أن يكون مقصدا من مقاصد النظم فى إيثار حرف التراخى.

ذلك أن الرجوع إلى الله فى غير آية الأنعام، يقع كناية عن لقاء الله للمجازاة على عمله، وإنباء الله المجازين بعلمهم ضربٌ من المحاسبة يعقب الرجوع إلى الله يوم القيامة، فهو كقوله: ﴿**وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾ [النور: ٣٩] فدخلت الفاء للدلالة على أن الحساب يعقب الرجوع إلى الله بلا تراخ، والدليل على ذلك أن الآية الأولى التى خوطب بها اليهود من سورة الجمعة، عطف فيها ردهم إلى

عالم الغيب والشهادة، على ملاقاة الموت للفارين، فالرد إلى الله بالقطع ليس كناية عن الموت، لأنه عطف عليه، و«ثم» فيه لتراخى الزمن بين ردهم إلى الله يوم القيامة وموتهم. فعطف الإنباء عليه بالفاء لتعقبه ردهم إلى ربهم.

وكذلك قوله تعالى فى الزمر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ كنى به عن مثولهم بين يديه للمحاسبة والمجازاة، لأنه تهديد بالمؤاخذة والجزاء على الشكر والكفر، وقد أعقب ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الذى يلائمه أن يكون الرجوع هو المجازاة والفصل بين أصحاب الأوزار، وأخذ كل بما جنت يداه، لا بما جنت يد غيره. لذلك قال الرازى: (ثم بين أحواله بعد الموت بقوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾)[1] فصرح بأن الرجوع من أحوال القيامة، وجعله دليلا عليها وعلى البعث، فكان عطف ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالفاء، إشارة إلى سرعة المحاسبة والجزاء.

أما آية الأنعام فقد اختص الرجوع فيها بالكناية عن الموت، ووقع الإنباء بالعمل كناية عن المجازاة، وهو ما صرح به البيضاوى فى قوله (﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ بالموت، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه)[2] فكان ذلك موقع حرف المهلة لما بين الموت والمجازاة يوم القيامة من زمن طويل ممتد، فالتراخى على حقيقته، وذلك موضعه الذى لا يصلح فيه سواه.

لكن يبقى أن يقال: لم خصت آية الأنعام بجعل الرجوع إلى الله كناية عن الموت، دون سواها؟ والجواب على ذلك هو أن الآية رد على منكرى البعث، وفيها ضرب الله المثل للإماته والإحياء فى شخص المنكر نفسه، وفيما يتكرر عليه صباح مساء، مما أحاله دوام المشاهدة والتكرر على الحس إلى عادة خفى معها الدليل الماثل على إمكان البعث، فما النوم إلا ضرب من الموت، ونموذج له، يفقد فيه النائم أهم خصائص الأحياء من الإحساس والتمييز. وما اليقظة سوى بعث وإعادة، يسترد معها المستيقظ مقومات الحياة التى سلبت منه بالنوم، لذلك سمى الله النوم وفاة، واليقظة بعثا، ثم جعلهما نموذجا ودليلا على الموت، المعبر

(١) تفسير الرازى ٢٦/ ٢٤٨.
(٢) تفسير البيضاوى ٢/ ٧٥.

عنه بالرجوع إلى الله، والبعث المدلول عليه بالمجازاة والمحاسبة، فى قوله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلو اختصرت مرحلة الموت، وجعل الرجوع والإنباء بالعمل معا كناية عن المجازاة والمحاسبة يوم القيامة، كما فى الآيات الأخرى، لما تطابق المثل والممثَّل له. وهذا أروع دلائل الإعجاز فى وضع الحرف موضعه الذى لا تتحقق أغراض النظم بحرف سواه.

• تطويع الزمن لأغراض النظم

ومما دق أمره وخفى وجه المغايرة فيه ما جاء على لسان النبى الكريم تحديا للمشركين وشركائهم، وما جاء على لسان هود متحديا قومه وآلهتهم، قال تعالى فى النعْى على المشركين، وأمره للنبى بتحديهم وشركاءهم: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ**﴾ [الأعراف: ١٩١- ١٩٥]. فعطف طلب الكيد بثم. وعدم الإنظار بالفاء.

وجاء على العكس فى تحدى هود، فعطف طلب الكيد بالفاء، وعدم الإنظار بحرف المهلة. قال تعالى: ﴿**قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ**﴾ [هود: ٥٣- ٥٥].

وحين نفتش عن سبب هذه المغايرة، فيما يبدو كالموضع الواحد، نجد أن سورة الأعراف سبق فيها التحدى بتحقير الشركاء، والنعى على عقول عبدتها، لأنهم يعبدون مخلوقين أمثالهم، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، فضلا عن

أن يضروا عابديهم أو ينفعوهم، لذلك أمر المشركين أن يدعوا هؤلاء الشركاء، ويتضامنوا معهم فى الكيد له، وأمهلهم من الزمن ما يتيح لهم فرصة الاستعداد والاحتشاد له، فعطف الأمر بالكيد على الأمر بدعوة شركائهم بحرف المهلة، إمعانا فى الاستهانة بالشركاء، وعدم مبالاة بكيدهم، وجاء عطف عدم الإنظار بالفاء، إغراقا فى التحدى والاستهانة، حين لا يطلب لنفسه نفس المهلة للرد على كيدهم، فطلب معاجلته بالقضاء عليه إن استطاعوا، وفى ذلك من التحقير والتهكم ما لا مزيد عليه.

أما فى سورة هود فإنهم صرحوا بأن آلهتهم قادرة على إنزال الضُّرِّ به، والكيد له، بل إنهم ادعوا حدوث ذلك فى قولهم: ﴿**إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**﴾ فإذا كانوا يثبتون لآلهتهم هذه القدرة على إنزال البشرية، فليس بحاجة إلى أن يطلب منهم دعوتها، وإمهالهم لحشد قواهم، فهم قد بدءوا حربه بالفعل، فطلب منهم التعجيل بالكيد له والقضاء عليه، فأدخل الفاء على الأمر بالكيد، لتدل على طلب المبادرة به، لما أن آلهتهم مستعدة لعقابه على ما زعموه، فكان الإمعان فى التحدى أن يمهلهم وآلهتهم ليبلغوا بالكيد غايته، ويستنفدوا معه كل أسلحتهم، لذلك دخلت «ثم» بين الكيد وعدم الإنظار، لتطيل زمن الكيد وترخى لهم العنان فيه، حتى يكون عدم إمهاله هو الغاية والهدف الأسمى من الكيد، على ما يفيده التراخى الرتبى.

وانظر إلى هذا الإعجاز فى التناغم بين المهلة الزمنية التى أشاعتها «ثم» على فعل الكيد، وبين إثبات ياء المتكلم فى قوله «فيكدونى» لتطيل زمن النطق بالكلمة مع طول النطق بثم، فيتسق طول النطق فى التعبير مع طول الزمن فى الإمهال.

وبالمقابل حين قصَّر زمن الكيد بالعطف عليه بالفاء تجاوب قصر الزمن فى نطق الفاء مع حذف الياء فى قوله ﴿**ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ**﴾ ليتناغم قصر العبارة مع قصر زمن الكيد. وهذا آية من آيات الإعجاز فى الذكر الحكيم.

فسبحان من لا تحيط بأسرار بيانه الأفهام وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.